القاء هذا الخطاب بمناسبة هذا العيد الجليل ومن جملة مجالي الاحتفال به رأينا ان نقدمهُ مطبوعاً في هذه المجلّة لمكارم عطوفة ملجأ ولايتنا الرشيد مع ما تقدّم رقمنا به من فروض التهاني والابتهال وتجالي الاجلال والاحتفال بالعيد المجيد الميمون المقرون بصُنوف السعد والاقبال

(المشرق) انّنا نثني على راقم هذه الاسطر حضرة المسيو يوسف العلم وعلى خطابهِ السجديّ فانَّ الادلّة الدقليّة والنقليّة التي اثبت فيها اصل السلطة الملاكة وحقوقها وما للدين في عضدها من اليد الطولى لجدير باعتبار كلّ عاقل يحبّ الألفة ويريد بقاءها سالمةً من آفات الفوضى وعواقب الفتن الوخيمة في ظلّ الرؤساء الشرعيين ايّد الله سلطانهم وارشدهم الى كلّ ما فيهِ خير الرعايا وصالح الدولة

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٥ الامم البائدة في لبنان

٣ الايطوريون

سبق لنا القول (ص ١٠٧) انَّ الرومان لمَّا فتحوا الشام وجدوا لبنان في حوزة قوم من الغزاة كانوا عشّشوا في جبالهِ الساحليَّة الممتدَّة من طرابلس الى جبيل. وهم الايطوريون

وليس هؤلاء القوم من لبنان وانّما اصلهم من اللجا ومن جبال حوران وكانوا ذوي بأس وطمع فتحاملوا على الجبل الشرقي واتّخذوا خيراتهِ كطعمةٍ ثمَّ تشوّفوا الى لبنان فاستولوا عليهِ قبل زمن الدولة الرومانيَّة بقليل

والايطوريون احدى القبائل العربيَّة او الاراميَّة (١ التي كانت مذ ذاك العهد مدَّت ظلّ سطوتها على البلاد الواقعة في جنوبيّ دمشق وشرقيّها. وكان شيخ القبيلة اوانئذٍ يدعى بطليموس ابن منّايوس من اعظم اهل سوريَّة ثروة وقدراً. وكان يحكم على بلد الايطوريين الاصليّ (٢ ويتولّى الجبل الشرقيّ وجهات البقاع الشماليَّة مع مدينتي بعلبك

١) كل الاعلام الايطوريَّة الاصل الواردة في الكتابات القديمة اما عربيَّة واما آراميَّة راجع مجموع الكتابات اللاتينيَّة (CIL., III, n° 4171 etc.) راجع ايضاً تفاصيل اخبار الايطوريين في معجم الكتاب المقدس (Vigouroux: *Dict. de la Bible*, art. *Iturée*) ٢) ايطوريَّة الاصليَّة توافق بلاد اللجا وحيدور الحاليَّة. وقد ورد ذكر ايطوريَّة في انجيل لوقا (٣: ١)

وكلسيس (Chalcis) وكان لهُ عسكرٌ من الفرسان يبلغ عددهُ ٨٠٠٠ فارس

ولمَّا زحف پمپيُوس على لبنان وجد طرابلس وما يجاورها من لبنان الشمالي(١ في قبضة احد الايطوريين من قرابة بطلميوس بن منَّاوس يُدعى ديونيسيوس. فاضطرَّ الرومان لتوطيد دعائم سلطانهم ان يحاربوا هؤلاء الدخلاء حربًا عوانًا كانت نتيجتها وبالًا على اهل ايطوريَّة فاسر پمپيُوس قائدهم ديونيسيوس وأمر بقطع رأسهِ ثمَّ توغَّل في لبنان فاخرب حصون جيفرتا وسنَّان وبوروما (٢ وكان غزاة الايطوريين يقحمون من هذه المقامات المنيعة على المدن الساحليَّة فيوسعون اهلها نهبًا وقتلًا. وقد حاولنا في مقالاتنا السابقة ان نبيِّن مواقع هذه الحصون فلتُراجع

وقد حارب پمپيُوس مدينة كلسيس الايطوريَّة فدمَّرها. وكلسيس على الرأي الراجح هي مدينة عين جرّ التي تُرى اخربتُها في سهل البقاع. امَّا قول البعض انَّها هي زحلة فلا نصيب لهُ من الصحَّة كما سنبيِّنهُ في كلامنا عن هذه البلدة

وخلاصة القول انَّ الآثار تنبئنا بامتداد سلطة الايطوريين في قسم كبير من لبنان الشماليّ. ولمَّا انتصر الرُّومان عليهم وفتحوا معاقلهم تقلَّص ظلُّهم وباد ذكرهم من التاريخ ولا رَيب انَّ بقاياهم امتزجت باهل لبنان

وممَّا يدلّ على وجود الايطوريين في لبنان ما وجدنا في الكتابات اليونانيَّة من الأعلام العربيَّة لاسيَّما في رأس الشقمة وانحاء جبيل

وليس الايطوريُّون القبيلة العربيَّة الوحيدة التي دخلت في عداد اهل لبنان. بل نجد قبائل غيرها توطَّنت ذلك الجبل لاسيَّما التنوخيين (٣. وهذا الامر مهمّ لمعرفة عناصر اهل لبنان نكتفي اليوم بالاشارة اليهِ فقط

٤ الرومانيُّون

استندنا من الفصل السابق ان الجيوش الرومانيَّة قهرت الايطوريين في لبنان

---

١) اعني ما يشمل اليوم قضاياتِ الكورة والبترون وقسم من جبيل

٢) ان صحَّ قولنا عن وقوع سنَّان وبوروما في كسروان فيكون ملك الايطوريين بلغ هذه المماثلة ايضًا

٣) جاء في كتاب البلدان لليعقوبيّ انَّ لبنان المجاور لصيداء كان يسكنهُ قوم من قريش ومن اهل اليمن (راجع المجلَّة الالمانيَّة الفلسطينيَّة ZDPV, IV, 87)

وكسرت شوكتهم. ولسائل ان يسألنا وهل احتلّ الرومان في لبنان فاستعمروهُ ؟ اليس وجود الكتابات اللاتينيّة المتعدّدة في هذا الجبل دليلًا على سكناهم فيهِ ؟ نقول انّ جوابنا عن توطّن الرومان في لبنان كجوابنا عن اليونان وقد اثبتنا ان الكتابات اليونانيّة لا تدلُّ وحدها على انّ اليونان استخاروا لبنان لسكناهم. فهكذا قل عن الرومان فانّ الكتابات اللاتينيّة تشير الى تلُّكهم على الجبل وتدلُّ على انّ اللغة اللاتينيّة كانت اللغة الرسميّة في بلاد الشام في القرن الاوّل السابق لعهد المسيح والقرنين التابعين لهُ

هذا ولا ننكر انّ بعض الرومان وخصوصًا اصحاب مستعمرتي بيروت وبعلبك الرومانيين كانوا يملكون في لبنان اقطاعات كثيرة من جملتها املاك الايطوريين لكنّ الرومان في الغالب لم يتولّوا بانفسهم زراعة هذه الاملاك وانّما كانوا يعهدون امرها الى شركاء وطنيين يقومون بشؤونها ويستثمرونها باسمهم. وان وُجد منهم احد في لبنان فالصواب ان يقال انّهم كانوا نفرًا قليلًا. ومن ثمّة لا يجوز ان ننظم الرومانيين بين الشعوب اللبنانيّة القديمة

٥ المرّدة

في بُهرة القرن السابع اعني سنة ٦٧٧ يذكر مؤرخو اليونان لاوّل مرّة قومًا يجعلون سكناهم في جبال الشام من جبل اللكّام شمالًا الى حدود فلسطين جنوبًا وهم يدعونهم مردانيين ويعرفهم المحدثون باسم المرّدة. ومن غريب امر هذا الشعب انّهُ لم يبدُ في بادئ ذي بدء ضعيفًا ضئيلًا بل نراهُ جاثمًا فوق مشارف لبنان ضابطًا مضايقهُ شاغلًا كلّ نقطةٍ الحصينة على مدى طولهِ من الشمال الى الجنوب وليس من يقوم في وجههِ بل كثيرًا ما ينقضُّ من مراكزهِ الحريزة فيغزو المعاملات القريبة منهُ دون ان يردّ احد هجماتهِ. ولم يزل امر هؤلاء المرّدة في اشتداد حتى صار كلُّ الملهوفين والمطرودين من اهل الوطن واصحاب الناقة يلتجئونَ اليهم ويأوذون بحمايتهم ويزيدونهم عددًا وقوّة. ولا غرو انّهم لو ثبتوا مدّة على ذلك لأتوا بالاعمال الخطيرة لولا انّ ملوك الروم الذين كان المرّدة يخضعون لهم امروهم بالخروج من لبنان بعد ظهورهم فيهِ ببضع سنين فاندثر امرهم على فورٍ كما ظهروا بغتةً دون ان يبقوا في لبنان اثرًا من مرورهم (١

(١) زعم دبان في كتاب بعثة فينيقية انّ قلعة سمر جبيل من آثار المرّدة في لبنان وهو قول

فمن ذا تُرى هذا الشعب ؟ كيف ظهر على فجأة دون ان يذكر احد وجوده في بلاد الشام ولبنان سابقًا ؟ انّى خرج ؟ هذه اسئلة اقترحها قبلنا العلماء وحاولوا حلّ عقدتها . ومما يدلّ على ان الامر ملتبس عويص انّ العلماء ذهبوا في ذلك الى مذاهب شتّى ندوّنها هنا دون ان نبدي فيها رأيًا تاركين لقرّائنا ان يصوّبوا الرأي الذي يرونهُ اصحّ واثبت

ولا بُدَّ قبل بسط هذه الآراء المتباينة ان نروي اقوال الكتبة الاوّلين الذين ذكروا المرّدة مباشرةً لانّ اقوالهم من شأنها ان تعرّف هذه الطائفة وتبيّن خواصّها

يؤخذ من اقدم ما ورد عن المرّدة انّ لبنان لم يكن مركزهم الاوّل . قال المؤرخ تاوفانوس عنهم (١ : « انّ المرّدة دخلوا لبنان » . (ἐισῆλθον εἰς τὸν Λίβανον) وفي هذا القول ما لا شبهة فيه عن مجيئهم الى لبنان من محلّ آخر . ثم اردف تاوفانوس قائلًا : « والتجأ اليهم الوطنيّون » وفي هذا دليل على انّ المردة لم يكونوا من اهل لبنان بل غرباء عنهُ . امّا عددهم فكان وافرًا يبلغ « اثني عشر الف رجل » شاك السلاح دون النساء والاطفال . ومما يدلُّ على بطشهم انّهم في مدّة اقلّ من نصف قرن ملأوا القلوب رعبًا بغزواتهم المتواصلة

والمؤرخون اذا اشاروا الى المردّة دعوهم بالفاظ عسكريّة وهي τάγμα يراد بها فرقة من الجند او الطابور . واسمهم هذا دليل على انّهم لم يكونوا شعبًا كبقيّة الشعوب بل كانوا على هيئة عسكريّة ونظام حربيّ يفلحون الارض وقت السلم وهم على أهبة لمباشرة الحرب في ايّ ساعة كانت . ولنا مثل على هذا التنظيم في امّة الكراوتيين التي كانت في القرن الثامن عشر تحافظ على حدود النمسا في جنوبها . وكان للرومان ايضًا فئات عسكريّة من هذا الصنف كانوا يقيمونها عند ثغور مملكتهم فيدعونهم لاجل ذلك بالفئات الحدوديّة (limitanei) اعني انّهم يذبّون عن الحدود ويدفعون عنها الاعداء . وكان اولادهم يرثون تلك الاملاك من بعدهم ويجرون مجراهم في الدفاع عن ثغور الدولة . وكان الرومان يختارون لمثل هذا المشروع قدماء الجند المتمكّنين

بلا دليل عوّدنا على مثله هذا الكاتب الذي يتّخذ مخيلتهُ حجّةً لمزاعمهِ . وقد بيّنا غير مرّة انهُ كثيرًا ما يبني الكلام على عواهنهِ ولا يسندهُ الى الادلّة

١) راجع تاريخهُ في مجموع الآباء اليونان المجلّد ١٠٨ (PG, T. 108 p. 722, 733, 737)

في آداب الحروب ثمّ وكلوا ذلك بعدئذٍ الى بعض اهل البلاد المجاورة لحدود المملكة (١

وان سألت عن الدولة التي كان المرّدة يخدمونها اجبناك انّهم كانوا تحت حكم ملوك الروم فهم الذين تقدّموا اليهم بالمدافعة عن الثغور الشاميّة وهم الذين صرفوهم عنها واتزلوهم في نواحي آسيّة الصغرى كما سيأتي

فهذه الافادات عن المرّدة لا ريب فيها يقرّ بصحّتها كلّ المحدثين لانّها وردت في تواريخ مشاهير الكتبة الذين عرّفوا هؤلاء القوم ووصفوا احوالهم

ولكن هنا مسألة أخرى لا يتّفق فيها ارباب العلم نريد اصل المردة وجنسيّتهم. فقد ارتأى بعض الائمّة ومنهم العلّامة السمعاني والحافظ ابي مروج بن غرون والدويهي ومن تبعهم من علماء الموارنة وبعض الكتبة الاوربيين كباروبيوس ولوكيان وغيرهما انّ المردة هم الموارنة. واقوى حججهم لبيان ذلك انّ المرّدة كانوا قومًا من النصارى يسكنون لبنان ولا نعرف في القرن السابع شعبًا يدين بالنصرانيّة ويسكن لبنان غير الموارنة. وان اعترض معترضٌ على اصحاب هذا الرأي بقوله انّ المردة كانوا فرقةً جنديّة موفدة من ملوك القسطنطينيّة الى بلاد الشام انكروا الامر قائلين لو كان المردة طائفةً من الجند لخرجوا من لبنان بعد انعقاد الصلح والامر ليس كذلك فانّ المؤرخين يذكرون انّهم داوموا غزواتهم بعد الصلح الذي عقدهُ يستنيان الثاني وانّهم لم يكفّوا عن غاراتهم حتى ابرم هذا الملك معاهدةً ثانيةً وارسل الى المردة عصبةً تصرفهم من لبنان بالوعد والوعيد الى بلاد الارمن حيث كان الملك وقتئذٍ (٢. فهذا الاحتجاج لا يخلو من القوّة وهو يبيّن ما في هذا البحث من المعضلات

امّا اصحاب الرأي الآخر فينكرون توحيد المرّدة والموارنة ويستندون رأيهم الى كون المردة ليسوا وطنيين كالموارنة بل غرباء عن لبنان اتوهُ من الخارج كما سبق القول ثم استولوا عليه فحصّنوهُ في وجه العدوّ مدّةً الى ان برحوهُ بعد زمن قليل

ومما يدعم به هؤلاء رأيهم في اختلاف المرّدة عن الموارنة انّ المردة كانوا خاضعين

---

١) راجع معجم الاديبات اليونانيّة والرومانيّة Saglio et Darenberg : *Dict. des antiquités grecques et latines* I, 1374

٢) راجع ردود السيّد العلّامة المفضال يوسف الدبس على الاب الصعودي قاليه (ص ٤)

لملوك الروم. قال ابن العبري في تاريخه السرياني (ص ١١٥) « انَّ المردة جنودٌ للملك قسطنطين اللحياني ارسلهم الى الشام للمدافعة عنها ». وكلُّ هذا لا يوافق الموارنة الذين خلعوا عنهم ربقة ملوك الروم كما يظهر من تواريخهم ومن علاقتهم مع الملكيين انصار بوزنطية وملوكها

ويزيد اصحاب هذا المذهب الثاني انَّ كلام تاوفانوس وقدرينوس (Cedrenus) وغيرهما ممَّا يغني عن المردة اصلهم اللبنانيّ. والمردة على قولهم كانوا قبل دخولهم في لبنان يقطنون بلاد الارمن وولايات آسية الصغرى حيث رجعوا بعد غزواتهم في لبنان. وقد كتب احد علماء الفرنج اسمهُ انكتي دو پارون (Anquetil - Duperron) مقالتين مطوَّلتين في مجلَّة الكتابات ليثبت انَّ المردة من الشعوب التي كانت قبل المسيح وانَّهم هاجروا الى بلاد عديدة في ممرّ الاجيال ومنهم مرّدة لبنان (١

وان سألت الذاهبين الى هذا القول: وما هي على رأيهم جنسيَّة المردة. اجابك بعضهم انَّهم اصلًا قبيلة ايرانيَّة دخل فيها اخلاطٌ من عناصر سوريَّة وارمنيَّة (٢

والاب مرتين في كتابه المخطوط « تاريخ لبنان » يقول انَّ المردة من العرب وهو يشتقّ اسمهم من « التمرُّد ». وهذا راي ضعيف لانَّ المردة لم يأتوا من جزيرة العرب ولا من جهة الشرق وانَّما دخلوا لبنان قادمين من الشمال. وهذا مما يرجّح راي القائلين بان المردة اتوا لبنان من جهة آسية الصغرى. ثم لم يُفِدْنا احد من المؤرخين عن دخول العرب الى لبنان في القرن السابع. وان قال القائل انَّ هؤلاء كانوا من نصارى غسَّان من الذين استعان بهم ملوك الروم اجبنا انَّ الغسَّانيين لم يخدموا اوانئذٍ ملوك القسطنطينيَّة خدمةً تُذكر بل لم يلبثوا ان انحازوا الى العرب مواطنيهم وكلُّ ذلك يخالف ما جاء عن المردة في كتب المؤرخين. وعلاوةً على ذلك انَّ الغسَّانيين كانوا من اليعاقبة وفي عهد المردة كان ملوك الروم يطاردون هذه الشيعة. ولم يكن المردة من قبيلة عربيَّة أخرى لانَّ العرب كانوا في ذلك العهد من الدّ اعداء الروم فليس المردة اذن عربًا

---

١) راجع Anquetil- Duperron : *Mémoires sur les migrations des Mardes* Mém. Acad. Inscr. T. XLV, 87 et L. 1

٢) راجع تاريخ دولة الروم Rambaud : *L'Empire grec au X^e siècle*, p. 213

هذا ومن المقرَّر الثابت انَّ ظهور الموارنة كأُمَّة مستقلَّة قد اتَّفق مع عهد حروب المردة في لبنان. وان لم يسلّم القرّاء بان الموارنة هم المردة فانَّهُ لا سبيل الى التكران بانهُ وجدت بين الفئتين علاقات ودّيَّة. ومما يتَّضح ايضاً من تاريخ ذلك العصر انَّ الموارنة عند خروج المردة من لبنان لم يتبعوهم في مهاجرتهم الى آسية الصغرى .بل ثبت معظمهم في جبلهم

اما المردة فجعلوا بعد عودتهم سكناهم في وطنهم القديم بلاد الارمن. ونرى منهم من قطن في جوار اضالية. ورحل قسم منهم الى جزيرة قبرس واحتلَّ غيرهم بلاد اليونان ومورة ونواحيها. ولم يزالوا في كلّ هذه البلاد على نظامهم العسكري وكان لهم ضبّاط يدعونهم كاتيانو (κατεπάνω). هذه خلاصة ما ورد في امر المردة ومن استزاد امكنهُ ان يراجع ما كتبهُ عنهم قدرينوس (ك ١ ص٧٦٥و٧٧١ طبعة بون) وزوناراس في مجموع اعمال الآباء اليونانيين (ج ١٣٤ ص ١٢٩٧) وتاريخ قبرس (ج ١. ص ١٠٦) للعلّامة ماس لاتري (Mas - Latrie) والسمعاني في المكتبة الشرقيَّة ومجلَّة اصداء الشرق(١٩٠١ص١٥٦)وساخاس(Sachas, Μεσαιωνική βιβλιοθήκη, II,45seqq.)

٦ العجم

جاء في كتاب البلدان لاحمد بن ابي يعقوب اليعقوبي (١ انَّ الخليفة معاوية لما فتح بلاد الشام وجد مدنها الساحليَّة فارغةً من السكان فاستقدم قوماً من العجم ليتخذوها لهم سكناً. وقد ذكر ذلك عن طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء. بل خصَّص بذلك ايضاً بعلبك وعرقة في بلاد عكار. فصارت كل النواحي المحيطة بلبنان في يد العجم بل اضحى قسمٌ من لبنان في حوزتهم وهي الايالات القريبة من المدن المذكورة كما يصرّح اليعقوبيّ بهذا الامر

قول اليعقوبيّ السابق ذكرهُ يضطرُّنا الى ان نجعل العجم بين الشعوب البائدة من لبنان التي بقت منها فيهِ بعض بقايا امتزجت باهلهِ. وشهادة اليعقوبي المذكور لم نجد لها ما يؤيّدها في سائر التواريخ وارصاف البلدان الّا انها تستحقُّ الاعتبار وتستوقف الانظار. كيف لا وهي لكاتب من اقدم كتبة العرب عاش في القرن الثالث للهجرة وهو من

١) راجع الصفحة ١١٤ من طبعة ليدن (ed. Juynboll)

المشاهير الموثوق بكلامهم وصف في تأليفه احداثًا قريبة من زمانه

وما يحملنا على تصديق قول اليعقوبي أننا نجد في لبنان قومًا من الشيعة كالمتاولة والنصيريين توطّنوا الجبل وبسطوا عليه سطوتهم وخلّفوا فيه آثارًا تنبئ بصحّة ما سطّره المؤرخ الموما اليه . ومن جملة هذه الآثار ما نراهُ في بعض اهل لبنان من تركيب الجسم وتقاطيع الوجه وسحنة البشرة التي يُعرف بها العجم

وقد وردت ايضًا في القرن العاشر شهادة أخرى تؤكد قول اليعقوبي وهي في كتاب رحلة احد الأعجام الى بلاد الشام وجزيرة العرب وهو نصري خسرو الذي نشر كتابهُ العلاّمة شرل شيفر الشهير . ومما قالهُ صاحب هذا الكتاب انَّ « اهل طرابلس كلهم من الشيعة » وكذا قال عن صور ولا نشكُّ انهُ يريد ابناء هؤلاء الأعجام الذين استقدمهم معاوية لسكنى بلاد الشام

ولم يعد الكتبة بعد هذا العهد يذكرون العجم وعندنا انَّ امرهم ضعف بعدئذٍ لما حدث في بلاد الشام من الحروب في القرن الثاني عشر فانتقض امرهم واختلطوا باهل لبنان . ومنهم النصيريّة والمتاولة الذين ظهروا بعدئذٍ (ستأتي البقيّة)

النصوص الحكمية

مجموعة من اقاويل ائمة الفلاسفة

هذه طرفة وردت في كتاب اديّات عند احد فضلاء مملقة الدامور الخواجا مبارك طنّوس عون وهو منقول سنة ١٨٣٠ عن رسائل وحكم قديمة لائمّة فلاسفة اليونان وغيرهم . ومما جاء فيه ايضًا رسالة في الحدود تُنسب الى الامام الفقيه عبد الرحمان الثعالبي وقد اقتصرنا اليوم على هذا الفصل وفيه مئة من الاقاويل الحكميّة التي يأنس بمعانيها الفهم ويرتاح الى آدابها القلب وتدلُّ على ذكاء قائليها

ل . ش

١ من انزل نفسهُ منزلة العاقل انزلهُ الناس منزلة الجاهل — ٢ صديق كل امرئ عقلهُ وعدوّهُ جهلهُ — ٣ من كان الناس عندهُ سواء ما لجنونهِ دواء — ٤ كثرة التقرّب الى الناس مجلبة لقرين السوء فكن من الناس بين المنقبض منهم والمسترسل اليهم —